دراسة تحليلية لعوامل النهوض والأفول الحضاري في ضوء القرآن الكريم*

أ. أحمد صبحي محمد إسماعيل**

*تاريخ التسليم: 2017/5/23م، تاريخ القبول: 2017/8/28م.
**طالب دكتوراه/ جامعة اليرموك/ الأردن.

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى بيان بعض عوامل النهوض والأفول الحضاري، كما عرضها القرآن الكريم، وبيان أثر القرآن الكريم في تشكيل هذه العوامل، ولتحقيق هذا الهدف، فقد اتبع الباحث المنهج الاستنباطي، والمنهج التأصيلي. وقد جاءت هذه الدراسة في مبحثين وأربعة مطالب، فجاء المبحث الأول بعنوان:(عوامل النهوض الحضاري في القرآن الكريم) وفيه مطلبان الأول:(عامل التوحيد) والثاني: عامل الحرية. وجاء المبحث الثاني بعنوان:(عوامل الأفول الحضاري في القرآن الكريم) وفيه مطلبان الأول: (عامل الفساد) والثاني (عامل القصور في البحث التجريبي). وقد توصلت الدراسة إلى أنّ التوحيد أهم عوامل نهوض الحضارة المنشودة، الجامع بين الفكر والسلوك. ويعد الإنسان المحرك الأساسي للوجود الحضاري وازدهاره، وعليه مقاومة الفساد بصوره المتنوعة، باعتباره الداء الأكبر الذي يسري في جسد الأمة. وتوصي الدراسة الجهات المعنية والقائمة على العملية التربوية والاجتماعية، الأخذ بعين الاعتبار بالنتائج الصادرة عن عملية البحث في عوامل النهوض والأفول الحضاري في القرآن الكريم، وربطها في المجال التربوي بصورة عملية جلية.

الكلمات المفتاحية: النهوض، التوحيد، الأفول.

An Analytical Study on the Factors of Cultural Rise and Decline in the Light of the Holy Quran

Abstract:

The aim of this study is to clarify some factors for the cultural rise and decline as shown in the Holy Quran, and to demonstrate the Quran's role in forming these factors. To achieve this aim, the researcher followed the deductive and inductive approach. The study included two themes and four subjects. The first theme has the title of "the factors of cultural rise in the Holy Quran" which includes two subjects, the amalgamation factor (the Islamic Theology) and the freedom factor. The title of the second theme is about the factors of the cultural decline in the Holy Quran with two subjects: the first is the corruption factor and the second is the limitation factor in the experimental research.

The study suggests that the Islamic Theology (amalgamation) between thought and behavior is the most important factor that contributes in the rise of a culture. Moreover, Mankind is considered to be the basis of the cultural existence and prosperity, so it is the responsibility of Mankind to resist the different kinds of corruption since it is the most dangerous ailment in the nation. The study recommends stakeholders who are in charge of the educational and social system to take into consideration the results of the study concerning the factors of the cultural rise and decline in the Holy Quran, to be connected with the educational field in a practical and clear way.

***Keywords**: revival, amalgamation, regression, rise, culture, civilization, decline*

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد خلق الله الخلق، وجعل بينهم روابط إيجابية، تقودهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، كما بيّن أنّ التخلي عن تلك الروابط أو السنن، يحقق الشقاء في الدنيا والآخرة، ومدار تلك الروابط العبودية لله تعالى، التي تدور حولها الروابط الايجابية، كما أنّ التخلي عنها يشكل خللاً واضحاً، في تسلسل تلك الروابط، ما يجعلها سلبية المنهج والسلوك.

والمنهج الرباني، منهج يجمع بين المادة والروح، ويمتاز عن غيره بصبغته الغيبية، التي تجعله يحمل صفة الديمومة، والاستمرار، والاستقرار.

وتلك الصفة الناتجة عن المنهج الرباني، تأخذ قوتها من مفهوم التوحيد، الذي يحدّد التصورات والعلاقات، على المستوى النفسي، والاجتماعي والدولي، ما يجعل البحث في مقومات النهوض مطلباً أساسياً، ولا سيما عامل التوحيد.

ولعل الناظر في الأوساط الحضارية، يدرك مدى التقدم المادي، الذي وصلت إليه الحضارة الغربية، نتيجة الأخذ بأسباب التمكين المادي، كما دعت إلى الحرية المطلقة، لتحقيق النهوض الحضاري، معتمدة على تعظيم العلم، وفصله عن الدين، ولكنّها لم تقدم للبشرية أنموذجاً روحياً متكاملاً من جانب آخر، ما جعل الحاجة ملحة لمنهج متكامل، يجمع بين المادة والروح، كما يحدد مسار الحرية الإنسانية، ودورها في النهوض الحضاري.

إنّ الحرية الإنسانية لا تعني بشكل من الأشكال، الإفساد بين العلاقات المترابطة في الوجود، كعلاقة الإنسان بربه، وعلاقته بالكون، وعلاقته بالحياة، لذلك عليه أن يواجه الفساد النفسي، والاجتماعي، والكوني، من خلال توجيهات المنهج الرباني، الداعية إلى ضبط خصائص الطبيعة الإنسانية، عبر مفهوم

التزكية، والتنقية، والتنمية، قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞**﴾ (الشمس)، وعلى أساس هذه التركيبة، بين الفجور والتقوى، والصراع الدائر بين هاتين الدائرتين، فإنّ عامل الفجور يقود إلى الفساد، الذي يعمل على هدم البنية التركيبية للحضارة الإسلامية، ما يجعل مواجهته، وبيان خطره أمراً واجباً.

ومن صور الفساد التي أخذت شكلاً خاصاً في الحضارة الإسلامية، قصور البحث التجريبي عند المسلمين في القرون الأخيرة، بعد ما كانت الحضارة الإسلامية، رائدة البحث العلمي بين الحضارات، ما يجعل الإشارة إلى دور البحث التجريبي في نهوض

الأمة وأفولها، ميداناً من ميادين الاستكشاف والاستبصار.

بناءً على سبق، فإنّ الباحث يتناول أربعة عوامل، تعمل على نهوض الأمة وأفولها، في ضوء القرآن الكريم، وجعل مفهوم التوحيد، هو الفلك التي تدور حوله تلك العوامل، سواء أكانت ايجابية أم سلبية.

ومن العوامل التي تعمل على نهوض الأمة وتقدمها، عاملي: التوحيد، والحرية، كما يعد عاملي: الفساد الاجتماعي، والقصور في البحث التجريبي، عوامل رئيسية تعمل على أفول الأمة ونكستها، ولبيان هذه العوامل من خلال نصوص القرآن الكريم، جاءت هذه الدراسة بعنوان: (دراسة تحليلية لعوامل النهوض والأفول الحضاري في ضوء القرآن الكريم).

مشكلة الدراسة وأسئلتها

فقد عاشت الأمة الإسلامية، بين الأمم مكانة عظيمة، ظهرت على كافة المستويات النفسية والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية. والناظر اليوم في واقعها، يجد أنها على خلاف تلك المكانة، فالفجوة بين الحاضر والماضي، فجوة كبيرة ظهرت بسبب عوامل عدة، يرى الباحث أنّ أبرزها غياب حقيقة مفهوم التوحيد عن واقع الأمة، واختلاط المصطلحات بين الثقافات والحضارات، منها مصطلح الحرية، ومصطلح الفساد، ومصطلح البحث العلمي.

وتبرز مشكلة الدراسة من خلال ضرورة معرفة عوامل نهوض الحضارة الإسلامية، وعوامل أفولها، وذلك من أجل التأسي بالعوامل الايجابية، وتنقية وتنقيح العوامل السلبية عبر الزمان والمكان، ولمعرفة بعض تلك العوامل، جاءت هذه الدراسة، لتجيب عن السؤال الرئيس: (**ما أهم عوامل النهوض والأفول الحضاري في ضوء القرآن الكريم؟**) **والذي يتفرع منه الأسئلة الفرعية الآتية:**

- **ما أهم عوامل النهوض الحضاري كما يعرضها القرآن الكريم؟**
- **ما أهم عوامل الأفول الحضاري كما يعرضها القرآن الكريم؟**

أهداف الدراسة

1. بيان أهم العوامل التي أثرت في نهوض الحضارة الإسلامية.
2. بيان أهم العوامل التي أثرت في أفول الحضارة الإسلامية.

أهمية الدراسة

تبرز أهمية هذه الدراسة في جوانب عدّة منها:

1. إفادة الدارسين والباحثين المهتمين بعوامل النهوض والأفول، بفتح الآفاق أمامهم، للقيام ببحوث ودراسات مستقبلية، في ضوء ما انتهت إليه الدراسة الحالية.
2. إفادة القائمين على النظام التربوي العربي والإسلامي، بضرورة الإشارة إلى عوامل النهوض والأفول الحضاري في المناهج التعليمية.
3. المساهمة في إثراء المكتبة بالبحوث التي تتعلق بموضوع الدراسة.

مصطلحات الدراسة

احتوت الدراسة على مصطلحات عدة، وظّفت في ثنايا البحث أهمها: (النهوض، والتوحيد، والحرية، والأفول، والفساد، والمنهج التجريبي) وقد دار البحث حول مصطلح التوحيد الذي يقصد به: (مجموعة الحقائق العقدية الأساسية، التي تنشأ في عقل المسلم وقلبه، ذلك التصور الخاص للوجود، وما وراءه من قدرة مبدعة، وإدارة مدبرة، وما يقوم بين هذا الوجود وهذه الإرادة من صلات وارتباطات)[1].

محددات الدراسة

1. اقتصرت الدراسة على إبراز نموذج من العوامل، التي تساهم في نهوض الأمة وأفولها، كما وردت في كتاب الله تعالى.
2. اقتصرت الدراسة على أربعة عوامل هي: عاملي نهوض: (التوحيد، والحرية)، وعاملي أفول: (الفساد، والقصور في البحث التجريبي).

منهج الدراسة

اتبع الباحث في هذه الدراسة، المنهج التأصيلي الاستنباطي، فعمد الباحث في المنهج الاستنباطي إلى استقراء الآيات التي تناولت بعض عوامل نهوض الأمة وأفولها، ومن ثم تأصيليها، بإرجاعها إلى مصدرها القرآني، وكيفية عرضها.

الدراسات السابقة

في حدود اطلاع الباحث، والبحث في مصادر المعلومات، توصل إلى مجموعة من الدراسات ذات الصلة منها:(*)

دراسة **سلوم (2003)** بعنوان (حاضر العالم الإسلامي عوامل التخلف والنهوض)[2]، والتي هدفت إلى معالجة موضوع حاضر العالم الإسلامي، عوامل التخلف والنهوض، ولا سيما العوامل الفكرية، وخلصت الدراسة إلى ضرورة قيام علماء الأمة ومثقفيها بالتركيز على إصلاح الفكر، وتجلية الرؤية، أمام أبناء الأمة ورجالاتها وقادتها، وأظهرت الدراسة أنّ المشكلة مشكلة أمة، وليست مشكلة فرد، وأنّ أول قيام لهذه الأمة ينبغي أن يكون بتصحيح الأفكار، وبيان مستوياتها ومجالاتها.

دراسة **عبد الكبير (2003)** بعنوان: (أزمة التخلف في العالم الإسلامي)[3]، والتي هدفت إلى تحديد مواطن الخلل، والمجالات المختلفة في المنظومة المعرفية لدى العقلية السليمة، ومجالات السياسة، والاقتصاد، والتعليم، مع ذكر عوامل التخلف من الداخل، ومن الخارج، وخلصت الدراسة إلى أنّ أزمة الأمة، أزمة فكر، كما أنّ أهم عوامل التخلف هي فرض الرأي الواحد، وعدم التحلي بالأخلاق الفاضلة قولاً وعملاً، وقصور المؤسسات التربوية عن دورها، في صياغة الفكر الإنساني.

دراسة **سمارة (2003)** بعنوان: (السنن الإلهية ودورها في نهضة الأمة الإسلامية)[4]، والتي هدفت إلى بيان دور السنن الإلهية، ودورها في نهضة الأمة، باعتبارها موجّه للمسلمين في معرفة هُويتهم، وعلاقتها برسالة الأمة، ودورها في الحياة كافة، هاديةً للحق من خلال ثلاث سنن تناولها الباحث هي: (التغيير،

والأخذ بالأسباب، والتدافع)، وخلصت الدراسة إلى أنّ النهضة تكون ببيان المنهج الإسلامي، في الحياة الإنسانية، واتباع جميع التصورات والاتجاهات والأنظمة لذلك المنهج، كما أنّ دراسة المقومات والمعوقات في النهوض الحضاري، يجب أن تكون وفق السنن الإلهية، كما أنّ التغيير الإيجابي منوط بطاقة الجهد البشري المرتبط بالسنن الإلهية.

التعقيب على الدراسات السابقة

اتفقت الدراسة الحالية مع الدراسات السابقة بما يأتي:

1. تناولت موضوع العقيدة بشكل أساس للنهوض الحضاري، وبيان أن المشكلة في عدم فهم الدين بالشكل الكامل.

2. بيان خطورة رفض الرأي الآخر في النهوض الحضاري، ما أدّى إلى عدم الاستفادة من خبرات الآخرين.

3. جعل السنن الإلهية عوامل أساسية للنهوض الحضاري، والتقدم المنشود، من خلال تناول سنّة العدل، ودفع الفساد، وهذا ما أشارت إليه بعض الدراسات بمصطلح الدفع العام.

وقد افترقت الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة بما يأتي:

1. طبيعة الدراسة الحالية طبيعة تأصيلية، جعلت من القرآن الكريم، مصدراً تشريعياً لعوامل النهوض، وموجهاً لعوامل الأفول، ما جعل تلك العوامل تأخذ صفة القوة والاستقرار، والاستمرار. كما أنها جعلت عامل التوحيد الموجه لضبط المحتوى، المتمثل بالمبادئ والقيم والاتجاهات بصورتها الربانية، والموجه لضبط المنهج المتمثل بالآليات، التي تطبق تلك المبادئ والقيم والاتجاهات.

2. اقتصرت الدراسة الحالية على أربعة عوامل تدور في بنية تركيبية واحدة، أساسها التوحيد، فالتوحيد هو الضابط في توجيه المسلم لضبط علاقته مع ربه، والضابط في حفظ العلاقات الأسرية، ولا سيما نظام الزوجية، وهو الضابط في حفظ العلاقات الاجتماعية، المتمثلة بنظام الجوار.

3. انفردت الدراسة بمفهوم الحرية، كما ورد في القرآن الكريم، والذي يعطي انطلاقةً إيجابية للفرد المسلم، لإعمار الكون وفق المنهج الرباني، وذلك ببيان خصائصه العاملة على النهوض الحضاري.

4. انفردت الدراسة بتأصيل مفهوم الفساد، كما عُرض في القرآن الكريم، وبيان أثره على دوائر (الأنفس، والاجتماع، والكون)

5. بينت الدراسة أثر التوحيد في توجيه المنهج التجريبي، القائم على الملاحظة، والفرض، والتجريب، وبيان الآيات القرآنية الدالة على ربط العلاقات فيما بينها، للوصول إلى قدرة الخالق تبارك وتعالى.

المبحث الأول: عوامل النهوض الحضاري

فقد أوجد **الله** تعالى الخليقة، وجعل قيامها على النفس الإنسانية، المكلفة بحمل الأمانة، التي تعطي للإنسان كرامته ومكانته في الحضارة الإنسانية، التي يُعبّر عنها بأنّها: (المستوى الذي بلغه المجتمع من الرقي والتقدم، في طور معين من تاريخه، أيّاً كان هذا المستوى، تخلفاً أو تقدماً)[5]، وعليه يقف الباحث على بعض العوامل التي تعمل على نهوض الأمة، ويقصد بتلك العوامل (القيام من الحال، وتغير الموضع إلى حال آخر بيّن ظاهر)[6]، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: عامل التوحيد

يعد التوحيد أحد العوامل الأساسية التي تعمل على تقدم الأمة ونهوضها، فأرسل **الله** تعالى رسله كافة برسالة واحدة، أساسها التفرد له سبحانه وتعالى، فقال:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ۞﴾ (الأنبياء) فكانت من حكمته سبحانه وتعالى، أن تُختم تلك الرسالات ببعثة النبي محمد– صلى **الله** عليه وسلم–، فأقام الحجة والبرهان على رسله بالتصديق والإقرار على ذلك، فقال تعالى:﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ۞﴾(آل عمران)

لذلك يعدُّ التوحيد الذي جاء به النبي– صلى **الله** عليه وسلم– ذا معانٍ مختلفة، ترتبط بالإنسان والكون، والحياة، والوجود الغيبي والمشاهَد، وأهم هذه المعاني: أنّه مشكّل أساسي للحضارة الإنسانية السوية، الخالية من الوصف الذي يخلب أساسها ومصدرها، ويظهر ذلك باعتبار التوحيد جوهرًا للحضارة الإنسانية .

ولا بُدّ من توافر مقومات أساسية، لقيام أيّ حضارة في الوجود، تتمثل بما أنزله الوحي أو فاض به الإلهام، وما توصل إليه العقل بالبحث العلمي، وما اكتسبه الإنسان عن طريق الاختبار والتجربة، والممارسة التطبيقية[7].

وبما أنّ الوحي مقوم من مقومات الحضارة، فإنّ المرتكز الذي يدعو إليه الوحي هو التوحيد المطلق، القائم على مكونين أساسيين هما: المحتوى المتمثل بالمبادئ والقيم والاتجاهات بصورتها الربانية، التي ينبغي أن تفعّل على أرض الواقع في السلوك البشري البنائي الحضاري، والمنهج المتمثل بالآليات التي تطبق بها تلك المبادئ والقيم والاتجاهات)[8].

وهذا التكوين لا ينفصل عن بعضه بعضاً، ما يجعله الركيزة الأساسية في كل علم من العلوم التي أوجدها **الله** تعالى، لذلك لا يستطيع الباحث أن يتناول التوحيد في تفصيلاته، **وإنّما سيقتصر على بحث علاقاته التركيبية، المبنية على التصور القرآني من خلال الأمور الآتية:**

- أولاً: دور التوحيد في توجيه المسلم.
- ثانيا: دور التوحيد في حفظ العلاقات الأسرية (الزوجية).
- ثالثا: دور التوحيد في حفظ العلاقات الاجتماعية (الجوار)

● **أولاً: دور التوحيد في توجيه المسلم**

تعدّ العلاقة بين الإنسان ومسمى العقيدة بمختلف ألفاظها – الإيمان والإسلام– علاقة تعارف وتعانق، تقوم على الإفهام، والإبلاغ، والإيصال، ثم الإعمال ، وهذه المصطلحات ليست ضرباً من الكلام، بقدر ما هي تصور مطلق للعقيدة، ذات المعنى القائم على _مجموعة الحقائق العقدية الأساسية، التي تنشأ في عقل المسلم وقلبه، ذلك التصور الخاص للوجود وما وراءه من قدرة مبدعة وإدارة مدبرة، وما يقوم بين هذا الوجود وهذه الإرادة من صلات وارتباطات)[9]، وقد دار كل من عماد الدين خليل، وماجد الكيلاني،

حول هذا التصور، وتكلم كل منهما حول دوائر ثلاث، تعكس طبيعة التصور الرباني للوجود الإنساني، والبناء الحضاري(*)، ولن يتناول الباحث الدوائر الثلاث، بيد أنّه يصوغ منطلقات قرآنية، ترسم التوجيه للفرد المسلم، والمتمثلة بما يأتي:

1. منطلق الجمالية العقلانية الإسلامية

اهتمّ القرآن الكريم بالعقل الإنساني، باعتباره محركاً أساسياً لفهم الحقائق، التي تعمل على تشكيل الحضارة الإسلامية، وصياغتها، ويبرز ذلك من خلال الآيات الآتية:

- قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة) وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد،17) يلاحظ من الآيات الكريمة الدعوة الصريحة لاستخدام العقل للنظر في الكون، وما يحدث فيه من تغيرات طبيعية، وذلك للعبرة والاتعاظ، وبيان التفاعل ما بين العقل، وخلق الله تعالى، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر،21)، فالآية الكريمة تحرك الحس التفكيري الاستنتاجي لدى المسلم؛ لينظر في ملكوت الله وخلقه المطلق، من الجبال والمادة، وما يكون في داخل الأرض والسماء، من أسرار خلق الله؛ ليستفيد منها، ويخرجها بصورة إيمانية، فالقرآن الكريم هو كلام الله الخالق، والجبال وما على شاكلتها خلق الله، ولا يتعارضان للضرورة الحتمية القائلة بوحدة المصدرية.(10)

وتعد الوحدة المصدرية المتمثلة بالتوحيد، الدعامة الأساسية لتوجيه عقل المسلم، لاستخدام الأساليب المتنوعة، الظاهرة في القرآن الكريم، ومن هذه الأساليب، المحاكمة العقلية، والاستدلال بطريق الأولى، والاستدلال بآيات الآفاق تارة والأنفس تارة، ومجتمعة تارة أخرى، والأسلوب العقلي، واختيار الفرضيات العقلية، وضرب الأمثلة، وأسلوب التمانع العقلي، والتحذير من تعطيل العقل، وضرورة تحريره من تفكير السلطات، وأسلوب الهداية العقلية، وغيرها من الأساليب.(11)

وتظهر الجمالية العقلانية في الربط بين آيات الذكر، وضرورة التفكر في مدلولاتها، الدالة على عظمة الله تعالى، ما يجعل المسلم ذا غاية فريدة في هذا الوجود، والمتمثلة بتحقيق العبودية المطلقة لله تعالى، القائمة على الدليل، والمنتفية أو المنكرة للتناقض، المنفتحة على كل جديد، والموصلة للتبعية المطلقة للوحي.(12)

2. منطلق جمالية الوحدة

يدعو القرآن الكريم إلى وحدة أفراد المجتمع الإسلامي، بطريقة فريدة قل نظيرها، وذلك بتوجيه الخطاب للجماعة المسلمة، قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران، 103)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات،10)، فالآيات الكريمة تدعو للحفاظ على الروابط الاجتماعية، المتشكلة من العلاقة التوحيدية، والتي ترسم بدورها ذروة المجتمع المسلم.

وللحفاظ على هذه الوحدة، فقد جاء النداء الرباني ليحذر من العوامل التي تخلخل تلك العلاقات، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ۞يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۞﴾ (الحجرات،11–13)، توضح الآيات الكريمة أثر التوحيد في جمالية الوحدة، بإخراج جيل قادر على التعامل مع المتغيرات النفسية والكونية، وذلك لارتباطه بالتوجيه الرباني للنفس الإنسانية، والذي يكّون أسلوبا واحداً وشكلاً واحداً هو الحضارة الإسلامية(13).

3. منطلق جمالية الإرادة والاختيار

يعمل التوحيد على توجيه الفرد المسلم، بالإضافة إلى الاهتمام بعقله وعلاقاته الاجتماعية، من خلال تكريمه، ورفع شأنه بين المخلوقات، ليقوم بالمهمة الموكلة إليه، آلا وهي تحقيق منهج الله في الأرض، من خلال توظيفه في كافة مكونات الوجود، والذي يتطلب اتصاف النفس الإنسانية، بصفة الإرادة والاختيار، وتحمل النتيجة لتلك الإرادة، ما يثبت دوره في تشكيل الحضارة الإنسانية، ونهوضها، وتطورها، وتنضبط الإرادة بضابط التوحيد، فهو الموجه لها ومرشدها، ما يضفي عليها الجمالية الإنسانية باعتباره طريق النجاة(14). ويضفي أيضاً صفة الموضوعية على الحضارة الإنسانية، وذلك بتحويل أفكار الأفراد إلى سلوك أخلاقي واجتماعي، يعبر من خلاله عن روح تلك الحضارة، التي تعمر الأرض بالإيجابية والفعالية.(15)

وقد أورد الله تعالى في كتابه العزيز من الآيات ما توضح المفهوم السابق تتمثل بما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۞ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۞ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۞﴾ (الإسراء،70–72)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۞﴾ (الشورى،20)، وخلاصة القول: أنّ الدائرة الأولى التي يرنو إليها التوحيد، هي دائرة النفس، باعتبارها أساساً للنهوض الحضاري، وهذه الدائرة مصدرها الربانية، التي أعطت للنفس الإنسانية قانون التغيير والنقد الذاتي؛ وهو جعل التغيير تابعاً لإرادة الإنسان، باعتباره سر التكريم الإلهي(16). فقال تعالى:﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۞﴾ (الرعد،11)، يقول السعدي في تفسير هذه الآيات:»﴿ لَهُ﴾ أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون

في الليل والنهار. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۞﴾ أي؛ يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائما، فكما أنّ علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد حتى لا تخفى أحوالهم، ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء،﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾من النعمة والإحسان ورغد العيش﴿بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر به، فيسلبهم الله عند ذلك إياها. وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غيّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي؛ عذاباً وشدة وأمرا يكرهونه، فإنّ إرادته لا بدّ أن تنفذ فيهم ﴿فَ﴾إنه﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ولا أحد يمنعهم منه،﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يتولى أمورهم فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين..)[17].

- **ثانيا: التوحيد في ضبط العلاقات (العلاقات الزوجية)**

لعلّ إبراز دور التوحيد عاملا من عوامل نهوض الأمة المسلمة، يجعلنا نسير في تلك التركيبة المعقدة التي لا تنفك، ولا ينبغي لها أن تنفك، والقاضية بالتكامل والتوازن بين العلاقات الإنسانية والكونية، ومن تلك العلاقات العلاقة الزوجية التي تشكّل إحدى العلاقات الأسرية، وان كانت هذه العلاقة هي علاقة عامة، وجدت في كل الموجودات الناتجة عن تلك المصدرية الربانية، ويظهر ذلك في قوله تعالى:﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۞﴾ (يس،36)، فنظام الزوجية نظام عام، ولكنّه في الحياة الإنسانية يأخذ نظاماً خاصاً طابعه التوحيد، الذي يشكل بدوره الفاعلية المطلقة، لسر الحياة الزوجية، التي أرادها الله تعالى، ولا يعني ذلك أنّه حكر على المسلمين دون غيرهم، بل هو مطلق الاستخدام محوط بالمسؤولية الجزائية عند المسلمين.

فالله تعالى جعل العلاقة الزوجية آية من آياته، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞﴾ (الروم،21)، فالآية تحمل في معناها العبر والعظة والتذكير بنظام الناس العام، وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة، وأساس التناسل، **ويأخذ نظام الزوجية في الجنس البشري شكلاً خاصاً يتمثل بالخصائص الآتية:**

1. جُعل الإنسان ناموس التناسل، وجعله قائم على التزاوج بين الجنسين.
2. يقوم نظام الازدواج على الإنس والرحمة والمودة بين الجنسين.
3. جعل طبيعة التناسل بين الزوجين من ذات الصنف تكريما له.

وختمت الآية الكريمة لقوم يتفكرون لأنّ التفكر والنظر في تلك الدلائل، هو الذي يجلّي كنهها، ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها، يصل إليها المؤمن الذي يعرف فضل المنعم[18].

وللحفاظ على هذه العلاقة المتينة، فقد جعل الله تبارك وتعالى، ضوابط في التعامل مع الزوجة، وجعل الرجل صاحب القوامة، فقال:﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۞﴾ (النساء،34)، هذه القوامة بمعناها، القدرة على ضبط العلاقة الزوجية، والمحافظة عليها بكل معنى الكلمة، والتفضيل الوارد هو الزيادة في القوة الجسمية والمعرفية، واختصاص الرجال بالرسالة الإلهية والولايات الكبرى، وقد تبع هذا تكليفات كثيرة على الرجل منها الجهاد، ودفع الأعداء [19].

وتتابع آيات المنهج الرباني في المحافظة على الحياة الزوجية، إذ جعل الوعظ، والهجر، والضرب، والإصلاح، وسائل مشروعة قبل إيقاع الطلاق، الذي هو خطوة علاجية لا انتقامية في الإسلام، فإذا وقع الطلاق جعل الوسائل الأولى ضرورة لازمة قبل إيقاع الثانية، ثم إذا استفحل الخلاف جعل العلاج الأكبر بضرورة تخلي كل منهما عن الآخر، وجعل أساس الفرقة قائمة على التقوى والمعروف، لقوله تعالى:﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ۞﴾(النساء،130).

وتعدّ جمالية هذه العلاقة والحفاظ عليها، باباً واسعاً، يفتح الآفاق أمام الأمة المسلمة، للنظر إلى العلاقات الأخرى القائمة على التوازن والتكامل، وذلك بالتّمعّن في آيات الله الكونية، قال تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ۞ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞﴾(الروم، 22–27)، إنّه نظام للزوجية بين الابتداء والانتهاء، قائم على الإبداع والإتقان، الذي يريده الله سبحانه وتعالى، فالأمة المسلمة عندما تنظر إلى الحياة الإنسانية نظرة تكاملية، فإنّها تسعى لإسعاد الإنسان، وتحقيق مراده، فإذا تحقق للإنسان هذه السعادة، كان سبباً في إسعاد الآخرين، والبحث عما ينفعهم هو سر النهوض. والنتيجة الحتمية؛ نجاح العلاقة الزوجية بكل معانيها هي أحدى مقومات نجاح الأمة وتقدمها.

- **ثالثاً: دور التوحيد في حفظ العلاقات الاجتماعية (الجوار)**

وينتقل الباحث إلى الدائرة الثالثة المتمثلة بالعلاقات الاجتماعية، ويختار منها علاقة الجوار، كمثال تطبيقي لأثر التوحيد في التركيب المعقد للحضارة الإسلامية. قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۞﴾ (النساء،36)

يعبّر مطلع الآية الكريمة عن حقيقة العبادة لله تعالى، التي ينبثق من خلالها جميع الأوامر والنواهي المتعلقة بالسلوك الإنساني، وتعتبر الاستجابة لحسن الجوار، أحد مكونات هذه الأوامر،

ويبرز – صاحب الظلال– جمالية هذه الآية، من خلال بيان أثر التوحيد في ضبط العلاقات الاجتماعية، بقوله: (.... تلك التصورات التي تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعالمية..... والتي تحيل الحياة في النهاية إلى وحدة متماسكة، تنبثق من المنهج الرباني، وتتلقى منه وحده دون سواه، وتجعل مردها في الدنيا والآخرة إلى الله. هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية، وفي المنهج الإسلامي، وفي دين الله الصحيح كله، تبرز هنا في تصدير آية الإحسان إلى الوالدين والأقربين، وغيرهم من طوائف الناس. بعبادة الله وتوحيده، ثم في الجمع بين قرابة الوالدين، وقرابة هذه الطوائف من الناس، متصلة هذه وتلك بعبادة الله وتوحيده، وذلك بعد أن جعل هذه العبادة وهذا التوحيد واسطة ما بين دستور الأسرة القريبة في نهاية الدرس الماضي، ودستور العلاقات الإنسانية الواسعة في هذا الدرس ليصلها جميعاً بتلك الآصرة التي تضم الأواصر جميعا،ً وليوحد المصدر الذي يشرع ويوجه في شأن هذه الأواصر جميعاً..)[20].

لقد أجمل قطب القول في وصف أثر التوحيد؛ ليؤكد الباحث أنّ بناء الحضارة القوية يشكل سلسلة مترابطة لا يمكن لها أن تنفك، وجعل جميع العلاقات تدور حول دائرة واحدة، هي دائرة التوحيد، التي تشكل سمة بارزة للحضارة الإنسانية، بقيام العلاقات الإنسانية على أساس وحدة الأصل العقدي.[21] ويعبر عنها بالشكل الآتي:

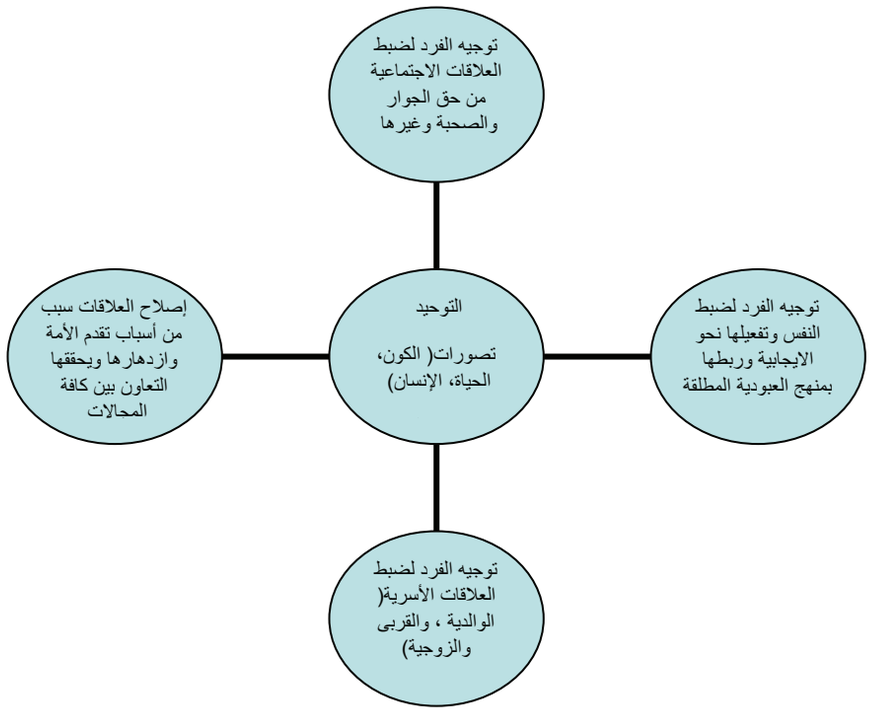

المطلب الثاني: عامل الحرية الدافعة

لقد تناول الباحث في المبحث الأول عوامل توجيه النفس، وكان منها عامل الإرادة، تلك الإرادة التي شكلت دافعاً نفسياً للتحرك نحو الحرية الدافعة، والتي يقصد بها: القدرة على نقل الأفكار بين الأفراد بالحجة والبرهان والثبات والاستقرار، فهي حرية لا تتبع الرغبات والشهوات، ولكنّها تتبع مصدراً ربانياً متيناً.

ويبرز اهتمام الإسلام بالحريات عموماً من خلال مرادفات كلمة الحرية في القرآن الكريم، فلم يرد هذا المصطلح مباشرة في القرآن الكريم، لكنّه ورد بمشتقاته، وذلك بقوله تعالى:﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ۞﴾(آل عمران، 35)، ومعنى محررا هنا هو الخالص للعبادة.[22] وهو مصطلح يدور حول المكنة العامة التي قررها الشارع للأفراد على السواء، تمكينا لهم من التصرف على خيرة من أمرهم، دون الإضرار بالغير.[23]

ومن هنا نأخذ معنى الحرية، فهي فعل الإنسان الخالص لله تعالى، لا ما هو خالصا لغيره، ولذلك جاءت محاور الآيات التي تحمل المشتقات الأخرى، لتحث على ذات المعنى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾(آل عمران:152) وقوله تعالى:﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۞**﴾(الإسراء، 18–19)، وضحت الآيات السابقة الصراع الدائر بين إرادتين، يترتب على كل واحدة منهما نتيجة حتمية، إما ايجابية تكون بالجنة، وإما سلبية تكون بالنار.[24]

وانطلاقا من هذه المصدرية، فإنّ الحرية في الإسلام تتناول جميع شؤون الحياة، لدى الفرد المسلم، سواء أكان هذا الشأن تربوياً أم اجتماعياً أم سياسياً... مما يجعل هذا العامل من مقومات النهوض الحضاري، القابل للنظر والتمحيص.

وعليه فإنّ من بداهة القول معرفة قيام الحضارة على الإنسان، الذي يلزمه أن يتحلى بحرية كيانه البشري، وتعني هذه الحرية منع كل تدخل غير مرغوب فيه، في حياة هذا الجسد وسلامته، في أثناء أدائه لوظائفه التي خلقه الخالق لها. ويأخذ هذا الاعتداء أحد شكلين، الأول اعتداء على الذات بالضرب أو القطع، والآخر الموانع التي تفرضها السلطة على ممارسة حرية الجسد [25].

ولصيانة هذه الحريات التي تصدر عن الإنسان، كان لا بد لها من مصدر يمتاز بالشمول والكمال، يحميها من العبث والسير خلف الشهوات والرغبات، فتشكل سياجاً عجيباً لباقي الحريات ابتداءً من الحرية الدينية، وانتهاءً بأعلى أنواع الحريات، والتي يمكن أن تكون الحرية الحضارية القائمة على تحقيق منهج **الله** تعالى[26].

ويعبّر أبو ناصر عن هذا الضابط بقوله: (إنّ الإسلام يرى أنّ الوسيلة الوحيدة للإيمان الصحيح هي المعرفة الحرة، والاقتناع المجرد، وطلب الإسلام من الآخرين هو أن يُترك حراً في عرض بضاعته، ليقبلها من يقبل، أو يرفضها من يرفض، ولا تعنى حرية الإنسان أنّه لا يخضع لنظام ما، بل هو يخضع للنظام الذي ارتضاه **الله** سبحانه وتعالى، ومن ثم يطيع ولي الأمر، ويطيع نظامه المستمد من شريعته)[27].

ومن هنا نجد التأصيل لمبدأ الحريات في كتاب **الله** تعالى، بقوله تعالى:﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة، 256)

إنّ هذه الحرية المتعلقة بالدين، لا تعني بالضرورة اللازمة التعصب، والانغلاق الفكري، بل ترى الحرية الدينية سبباً في نهوض الحضارات، كونها تعطي انطلاقةً ايجابيةً للفرد المسلم، لإعمار الكون وفق مراد **الله** تعالى. يقول سيد سابق: (لقد أجمع العقلاء على أنّ التفكير هو سر تقدم البشر، وأنّ الجمود والتقليد هما سبب انطفاء جذوة العقل، وارتكاس الإنسان في الضلال، وهبوطه إلى مستوى التأخر والانحطاط)[28]، ولعل من أهم أسباب تخلف الأمة التعصب المذهبي، الذي شاع في زمن تقدم الأمة وازدهارها، ممّا أدى إلى النزاع والتفسيق والتبديع، وتعطيل عقول كثير من المجتهدين[29].

وتعدّ قلة العلم، ومصادفة الرأي لذهن خال، والإعجاب بالرأي، واتباع الهوى، سبباً من أسباب التعصب الفكري، أو الانفراد بالرأي [30]، وتدل السنة الشريفة على عكس هذا الانغلاق، ولا سيما في حادثة بني قريظة، واجتهاد الصحابة بصلاة العصر[31].

وتعكس العصبية صورة التجزئة التي تأكل جسد الحضارة الإسلامية، وتستهلك ذاتها، وهذا التجزؤ يمر بالمستويات كافة من دائرة الأسرة إلى دائرة الأمة الإسلامية [32].

وللقضاء على ظاهرة التعصب، كان لزاماً أن يفعّل أسلوب الحوار الحر، وقد فعّل ذلك ابن عباس مع الخوارج، وأقام عليهم الحجة[33]. كما يظهر ذلك في جملة من الآيات القرآنية، ولا سيما في دعوة إبراهيم –عليه السلام– ومن أمثلة ذلك محاورة النمرود.

فالإيمان بالحوار بوصفه أسلوباً حضارياً، لحل المشكلات، هو الكفيل بتغييب النزوع إلى العنف في النفوس، وبفضله يخفف الإنسان من غلو أنانيته، ويتعلم أنّ الحقيقة لا يمكن أن تكون ملكاً خاصاً له، بل إنّ الحصول عليها يتم عبر تلاقح الأفكار، وتفاعل التجارب، واحتكاك الآراء المختلفة[34]. كما ينبغي أن تغذى العقول بالمسلمات الأساسية، التي تكوّن القاسم المشترك في النشاط الفكري، الذي يعمل على ضبط الأفكار، وفق تلك المسلمات.[35]

وتبرز الحرية عاملاً مهماً في نهوض الأمة، كونها تنتمي للإسلام، وتحاط بالخضوع إلى تلك المسلمات المتفق عليها، وتعمل محركاً حضارياً في جسد الأمة. **وذلك لاتصافها بالخصائص الآتية**:

♦ **أولاً**: امتازت بالثبات أي أنها لا تعتمد على الرغبة، أو أنها وليدة التطور الاجتماعي والاقتصادي، حيث إنّها تعدّ جزءاً رئيسياً مكملاً لمفهوم الإسلام للإنسان، الذي طلب منه **الله** تعالى، حمل الأمانة على هذه الأرض، وبالتالي إلزامية التمسك بها من قبل المكلفين، واحترامها لوجود النص الشرعي، الذي يصفها بصفة الثبات والالتزام.

♦ **ثانيا**: تأثرها بالسلطة السياسية، إذ إنّ تطبيق الحريات والعمل بها، لا يعني انعزال السلطة السياسية عنها، لامتياز السلطة السياسية بالصبغة الشرعية، وبالتالي تكون هي الوسيلة لتحقيق الحريات لا منشئة لها، ما يجعل الحريات في الإسلام، ذات حجة على صاحبها، لارتباطها بالحاكمية.

♦ **ثالثا**: التكامل العملي بين التكليف الموجه للجماعة، وبين التكليف الموجه للأفراد، وتأثيره على الحريات، أي التكامل والترابط الحقيقي بين التكاليف التي يجب على الجماعة وممثليها الأخذ بها، وبين الحقوق والحريات التي يجب على الأفراد أخذها واستعمالها، بحيث إذا أهمل الفرد أو الجماعة في التنفيذ العملي للأحكام الشرعية، بدأت هذه السلسة المترابطة في الانهيار، وذلك لوجود تأثير إيجابي وسلبي بين الفرد والجماعة.

♦ **رابعاً**: تمتُّعُ الحريات بصفة الربانية، تجعلها قادرة على إعادة صياغة الفرد والجماعة نفسيا وتربوياً وقانونياً.

♦ **خامساً**: إنّ الحريات الإلهية تعنى بتحقيق التوازن بين الفرد والدولة، لأنّ مصدرها خارج النظامين، ما يجعل الجميع يقوم بتلك الحريات وضبط الخلل.

♦ **سادساً**: لإعطاء الحريات والحقوق مكانها في التشريع الإسلامي، لا بد أن تعتمد على المقاصد الشرعية، وترتيب الأولويات من ضرورات وحاجيات وتحسينات، يجعل الالتزام بها ضرورة لا تحسينية[36].

وتصبح النتيجة الحاصلة للحرية في الحضارة الإسلامية، أنّها منبع باقي الحريات، ولا غنى لأي حرية عن الحرية الدينية،

التي تحدد معالم النهوض الحضاري، وفق مراد الشارع الحكيم والتي يعبر عنها الباحث بانموذج الآتي:

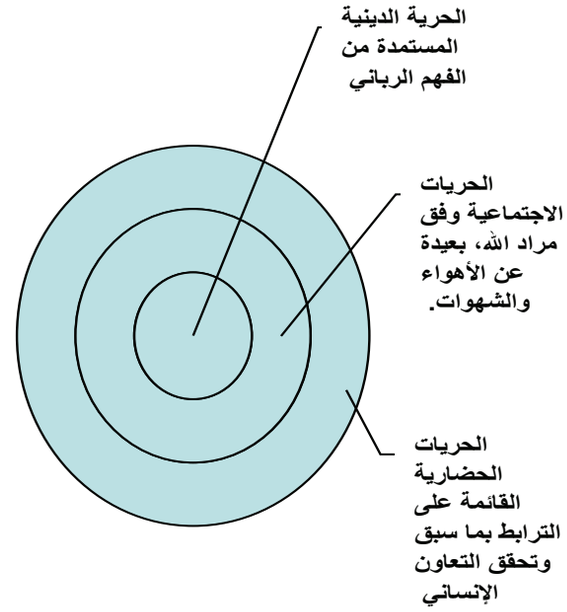

المبحث الثاني: عوامل الأفول

لكلّ حضارة من الحضارات مصادر قوة ومصادر ضعف، كما لها عوامل حافظت على بقائها، وأخرى ساهمت على تراجعها واندحارها، ويأتي معنى الأفول هنا بمعنى الغياب، إذ تقول العرب أفل النَّجْم أَفلا وأفولا غَابَ فَهُوَ آفل[37]، وَفِي الْقُرْآن ﴿فَلَمَّا أفل قَالَ لَا أحب الآفلين﴾ (الأنعام:78)

ومن هنا يقف الباحث على بعض العوامل المتعلقة بأفول الحضارة الإسلامية، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: عامل الفساد

ورد مصطلح الفساد في القرآن الكريم بمشتقات مختلفة، يقف الباحث على بعضها من خلال تناول الآيات ذات الصلة بموضوع الدراسة، حيث يدور هذا المصطلح حول جملة من المعاني: أهمها النتن والعطب، تقول العرب: فسد اللَّحْم أَو اللَّبن أَو نَحْوهمَا فَسَادًا أنتن أَو عطب، وَالْعقد وَنَحْوه بَطل، وَالرجل جَاوز الصَّوَاب وَالْحكمَة، والأمور اضْطَرَبَتْ وأدركها الْخلَل، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞﴾(الأنبياء، 22)، فَهُوَ فَاسد وفسيد، (أفسد) الرجل فسد، وَالشَّيْء جعله فَاسدا،(فَاسد) الرجل رهطه أَسَاءَ إِلَيْهِم، ففسدوا عَلَيْهِ (فسده) مُبَالغَة فِي فسده (تفاسد) الْقَوْم، تدابروا وَقَطعُوا الْأَرْحَام و(استفسد) الشَّيْء، عمل على أَن يكون فَاسدا، يُقَال استفسد الزَّرْع وَالْأَمر وجده أَو عده فَاسداً، وَالرجل رهطه فاسده (الْفساد) التّلف والعطب وَالاضْطِرَاب والخلل والجدب والقحط، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞﴾ (الروم، 41)، ظهر الْفساد فِي الْبر وَالْبَحْر بِمَا كسبت أَيدِي النَّاس، وإلحاق الضرَر وَفِي التَّنْزِيل﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾(المائدة: 33) (الْمفْسدَة) الضرَر يُقَال هَذَا الْأَمر مفْسدَة لكذا فِيهِ فَسَاده وَمَا يُؤَدِّي إِلَى الْفساد من لَهو وَلعب. (39)

وجماع ذلك يدور حول الضرر، وإخراج الأمر عن أصله، وهذا ما يبينه الباحث في هذا المبحث. ومن الآيات الدالة على ذلك ما يأتي:

1. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۞**﴾ (البقرة، 11–12)، تتعلق هذه الآيات بفساد الصفات الإنسانية، ويكون الفساد الواقع من الإنسان على أنواع ثلاثة هي:
2. الأول: إفساد الأنفس
3. الثاني: فساد (متعدٍ) متصل بالغير، وذلك من خلال القدرة السلبية، وإغواء غيره بهذه التصرفات.
4. الثالث: فساد فعلي، ويرتبط بإفساد المجتمع كإلقاء الغيبة والنميمة.[39]
5. قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞**﴾(البقرة، 60)، ويتعلق بهذه الآيات الفساد المتعلق بالنعم، يقول ابن عاشور: (إنّ النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق، فيهجر الشريعة فيقع الفساد)[40]. وهذه النعم تتعلق بالجانب الاقتصادي، والذي يؤدي بدوره إلى انهيار الحضارة، بفقدانها أهم مقوم من مقومات النهوض.
6. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ۞**﴾(البقرة، 205)، ويتعلق بهذه الآية الفساد البيئي، والتحذير منه، وهو يبين حقيقة العلاقة بين الإنسان ومحيطه البيئي، وينبغي على الإنسان أن يحسن التعامل مع ما أوجده الله، وبيان الحكمة في خلقه. [41]
7. قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞**﴾ (الأعراف، 74)، في هذه الآية يظهر التحذير من تخريب القوة العمرانية المادية، الدالة على ثقافة وأصالة الأمم، والتي يتم إفسادها من خلال إنكار النعم الإلهية، التي هي سبب في استمرار النهوض، وفي الوقت الذي تنكر فيه الدول نعم الله وتجحدها، يبدأ سلم الانهيار بالتصاعد حتى يصل ذروته.
8. قوله تعالى:﴿**فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۞**﴾(هود، 116)، توضح الآيات الكريمة خطورة الذنوب والمعاصي المؤدية إلى إهلاك الأمم والحضارات، وضرورة وجود فئة مصلحة تقوم بإرشاد الناس وإصلاحهم، فالحضارة الإسلامية عندما فقدت الداعين إلى الإصلاح بالشكل المطلوب، كانت النتيجة الوخيمة القائلة بالتقليد، لا بالنهوض والتأثير، والناظر في حال الأمة اليوم، يجد الاختلاف القائم بين أهل الإصلاح أنفسهم، فكيف يكون من قبل غيرهم.[42]

وترتبط هذه الآية الكريمة ارتباطا وثيقا بقوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ**

الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞﴾ (الروم،41)، إذ تُبين هذه الآية صراحة أنّ الفساد مشترك بين الناس، لا تخص به أمّة دون أخرى، ويعبر صاحب الظلال عن ذلك بقوله:(.. ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها، بأعمال الناس وكسبهم، وأنّ فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم، يوقع في الأرض الفساد، ويملؤها براً وبحراً لهذا الفساد، ويجعله مسيطراً على أقدارها غالباً عليها، فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا، ولا يقع مصادفة، إنما هو تدبير الله وسننه ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ من الشر والفساد حينما يكتوون بناره ويتألمون لما يصيبهم منه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيعزمون على مقاومة الفساد، ويرجعون إلى الله والى العمل الصالح والى المنهج القويم)[43]

وبعد هذا العرض لبعض صور الفساد في القرآن الكريم، يعرض الباحث أهم وسائل نشر الفساد وكيفية مقاومته، آلا وهو التقليد الأعمى، واتّباع الشيطان، الذي يأمر بكل فساد، سواء أكان اعتقادياً أم نفسياً أم اجتماعياً أم سياسياً ... فجاء التحذير منه، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۞ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞﴾ (البقرة،168–171)

فالشيطان هو الآمر بالفساد، وإن كان هناك من يعترض فيقول: الأمم تتقدم ونحن ما زلنا نحارب الشيطان، نعم الشيطان هو العدو الأكبر، وهو الذي يجهز جنوده للعمل كما يريد، والنفس الإنسانية إذا أخذت الطرق والسبل التي يدعو إليها الشيطان، فإنها تتمثل بالتقليد الأعمى، واتباع ما لا يأمر به الله تعالى، وتظهر لنا قوة التعبير في نهاية الآية الكريمة، إذ انتهت بذكر العقل والهداية، فالعقل دلالة على التفكر والتدبر، وطريق المنطق والبرهان، والاهتداء إتباع مرشد كنبي مرسل لذلك، فالتقليد ينشأ من عدم التفكر والاهتداء[44]. ويعني ذلك أنّ مقاومة الفساد تكون بسلامة العقل والمنهج، واتباع قيادة مميزة تستمد، قوتها من مصدر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومهما كان الفساد بنوعيه الداخلي المتمثل بالتفكير والتخيل والتصور.... والظاهري مثل: الكلام والحركة[45]، والذي يمكن أن يُلاحظ، فإنّ علاجه هو إظهار الحق، لقوله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۞﴾ (الأنبياء،18)، ويأخذ هذا الحق عدّة مظاهر منها: إظهار التوحيد الخالص، واليقين المطلق بهذه الوحدانية، ومتابعة اليقين القلبي بالقول الثابت، وتحقيق الثواب، والبشرى بالمغفرة والجنة.[46]

ويتضح لنا مما سبق، أنّ دائرة الفساد في الأرض تدور حول ثلاث دوائر أساسية تتمثل بما يأتي:

1. دائرة الأنفس التي تظهر فيها خطورة الفساد المتعلق بالمعتقد والتوجه. لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞﴾ (الشمس،7–9)

2. الدائرة الاجتماعية أو العلاقات الاجتماعية وفيها تظهر خطورة التفريق بين الناس، والتحذير من اضطراب العلاقات، أو محاولة عطب وإنتان العلاقات، لقوله تعالى:﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞﴾ (محمد، 22)

3. دائرة الكون، وفيها يسعى الإنسان للحفاظ على الموجودات التي أودعها الله عز وجل، وتجنب إفسادها وخرابها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞﴾ (الروم، 41)،

المطلب الثاني: قصور استخدام المنهج التجريبي

لعل فقه التغيير الحقيقي هو الذي ينقص الأمة، فالأمة الإسلامية لا تتبع الوسائل المؤدية إلى النهوض، بقدر ما تسير خلف التقليد، لذلك فإنّ المتدبر في حال الأمة، يلاحظ التطور الملموس الذي وصل إليه الغرب، ونحن ما زلنا نبحث عن وجودنا الحضاري.

لذلك كان لزاماً أن تعرف الأمة الغاية من المنهج التجريبي، المتمثلة بالرغبة من الاهتداء إلى العلاقات التي تربط ظاهرة ما بعلتها القريبة، ولب هذا المنهج هو (الاستقراء) الذي تنسب إليه مهمة تقرير ظاهرة ما، أو العلاقات الثابتة التي تتيح لنا فهم الظواهر أو الأشياء الخارجية فهماً علمياً صحيحاً؛ لأنّ تسجيل الحقائق الثابتة المبعثرة، التي نصل إليها، لا يكفي في نشأة العلم وتدعيمه. إذ إنّ معرفة القانون تعين على التنبؤ بالمستقبل، ومنه يستطيع المرء أن يحكم على نهوض الأمة أو أفولها، وهذا يحتاج إلى أن تتمكن الأمة من المنهج التجريبي القائم على الدليل، ثم ربط هذا المنهج بالمصدرية الربانية المتمثلة بالوحي، وهذا المنهج يقوم على ثلاث خطوات هي الملاحظة والفرض والتجريب[47].

والعلم التجريبي يبحث في كل الظواهر والأحداث والوقائع التي تشكل في ترابطها الإجمالي نظام العالم الطبيعي ككل، ضمن وحدة التصور المعرفي والعقلاني، والخاضعة للدراسة والمعالجة بشتى المناهج البحثية التي بيّنها المنهج التجريبي، إذ إنّه يشمل الظواهر الجوية، وعلاقة الأجسام بالزمان والمكان (علم الميكانيك)، والبحث في الأفلاك وترتيبها ونظامها، والظواهر الجوية وما يتعلق بها، ودراسة المعادن وخصائصها، ودراسة الحيوان وتكوينه، وعلاقته مع بعضه بعضاً، بل أعمّ من ذلك دراسة كل ما في الوجود، وبيان العلاقات الدالة على وجود الخالق[48]، كما يعمل على الشرح والتفسير والنقد، والتشريح وكشف المستور، لفهم حقيقة الوجود[49].

وكل ما سبق الحديث عنه هو عوامل لتقدم الأمة وازدهارها بين الأمم، لذلك فإنّ الشارع الكريم جعل من منهج الإسلام البحث في العلوم سالفة الذكر أمر واجب، لا يمكن أن ينفك عن حقيقة المنهج الإسلامي، **ما يجعل التقاعس والقصور فيه سبب من أسباب التراجع والأفول، ومن هذه الآيات الدالة على ذلك ما يلي:**

1. قوله الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ۞﴾ (الأعراف، 185)

2. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞﴾ (ق، 6–7)

3. قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞﴾ (آل عمران، 109)

4. قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞﴾(فصلت، 53)، هذه الدعوة فهمها من سبق من المسلمين، فعملوا على تفعيل النظر في الكون، وما فيه من أسرار، فاشتهروا بالطب، والكيمياء، والفلك، وغيرها من العلوم، ويُأخذ الطب كنموذج للبحث التجريبي، فقد كان يستهدف حفظ الصحة على الأصحاء، وهو الجانب الوقائي، وتوصلوا إلى ذلك عن طريق دراسة أعضاء الجسم، والكشف عن أسباب المرض. كما قرر الخليفة المقتدر عام 319هـ/931م امتحانا لمن يزاول مهنة الطب، وقد وصل بهم العلم في الطب، أنّهم اكتشفوا البول السكري، ورمد العين، وأوجدوا المستشفيات، ومعاهد تعليم الطب، ودوراً لعلاج المرضى، ومن أهم ما وصلوا إليه، علاج الطب النفسي، وعلاقته بالمسائل الجنسية، على نحو تجريبي علمي، وذلك بما قام به ابن سينا في معالجة أمير حار الأطباء في علاجه، فامسك بيده وأخذ يسأله عن أحوال البلد الذي هو فيها، وكلما اقترب إلى منطقة يزداد نبض المريض حتى وصل إلى بيت من البيوت، فازداد نبضه فقال علاجه الزواج من فلانة [50].

وهنا على الأمة المسلمة أن تعي حجم التحدي الذي يواجهها في الأخذ من الحضارات الأخرى، وتترك التبعية العمياء، وتتذكر أن الغرب وعلماءه، ما كانوا في يوم من الأيام إلا أتباعاً للحضارة الإسلامية، والتي كانت رائدة في وضع المنهج التجريبي، والقياس العلمي، وما كان (فرانسيس بيكون) إلا ممن تأثر بالمنهج الإسلامي ونقله إلى الغرب بعد أن درس في بلاد المسلمين.[51]

ولا يعني ذلك أن نذمّ الحضارة الغربية، بما وصلت إليه، بل علينا أن نعلم أنّ الذي يأخذ بأسباب النهوض، هو الذي يثبت في ساحة العمل، ويسير في القيادة، فإذا أرادت الأمة أن تسير وتلحق بالركب، فعليها أن تأخذ بأسباب العلم التجريبي، على المستوى الإنساني، والمستوى العلمي، فعليها أن تعلم أنّ المعرفة المستمدة من الوحي، هي المعرفة المنجّية ولا انفصام بين العلوم بتاتا، وأنّ الانفصام الناتج إنّما هو فصام فكري، مبني على التقليد، وقلة الفهم الكلي، النابع من مصدرية العلوم الكونية والإنسانية.

وفي ذلك يقول منير: (إنّ المعرفة الإسلامية، في جوهرها الموضوعي، هي الحركة القائمة على التفاعل الحي بين البيان، والبرهان، والعرفان، بل هي التطور المتجدد لهذه الحركة في اندفاعها إلى الإمام عبر التاريخ، ولذلك فإنّ المعرفية الإسلامية تنطوي في مكنونها على طاقة الاكتمال الحيوية، التي تعكس في صورتها المتوازنة خصائص النموذج الكلي paradigm، وفاعلية الإحاطة التي تمتلكها الرؤية الشمولية[52](worldview).

ولعل تفعيل عمليات المراجعة والتحديث، المبنية على نقد الماضي وفحصه، للوقوف على السلبيات والايجابيات، ثم توظيفها في أحوال الأمة وواقعها المعيش، لتنتقل بالأمة من حالة الضعف والركون إلى حالة القوة والاستقرار، ما يجعلها قادرة على الإبداع في حقل المنهج التجريبي وفلسفة العلم[53].

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين –محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه– أجمعين وبعد:

توصلت الدراسة إلى النتائج والتوصيات الآتية:

نتائج الدراسة

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

1. تتأثر الحضارات الإنسانية بعوامل ايجابية تعمل على نهوضها، وأخرى سلبية تعمل على أفولها، والحضارة الإسلامية جزء من تلك الحضارات، تتأثر بعوامل ايجابية أهمها: عاملي: التوحيد والحرية، وعوامل سلبية أهمها: عاملي الفساد، والقصور في البحث العلمي.

2. يعد مفهوم التوحيد الذي يوجه التصورات والسلوكيات إلى الالتزام بأوامر الله تعالى عاملاً من عوامل النهوض، ولا سيما في ظل وجود التنافس الحضاري.

3. تعد الحرية الإنسانية أمر ضروري، لتقدم الأمة وازدهارها، وذلك من خلال ضبطها بضابط الوحي، الذي يحدد طبيعة الحريات الفردية، والاجتماعية، والحضارية، بناء على عمق المفهوم المستنبط من العقيدة الإسلامية.

4. ينقسم الفساد إلى فساد داخلي، يتعلق بالتفكر والاعتقادات، وفساد خارجي متعلق بالأقوال والأفعال، وتكون مواجهته بإظهار الحق، والعمل به.

5. يعد المنهج التجريبي العلمي، منهج إسلامي أصيل، يظهر العلاقات الترابطية بين الكون والإنسان والحياة والتوحيد.

التوصيات

خلصت الدراسة إلى جملة من التوصيات أهمها:

1. على الجهات المعنية والقائمة على العملية التربوية والاجتماعية، الأخذ بعين الاعتبار بالنتائج الصادرة عن عملية البحث في عوامل النهوض والأفول الحضاري في القرآن الكريم، وربطها في المجال التربوي بصورة جلية عملية.

2. توجه الباحثين للكشف عن عوامل النهوض والأفول بطريقة علمية عملية، من خلال النصوص القرآنية وتفعيلها تربوياً.

الهوامش:

1. قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1406م، 1986م، ص 41.

(*) يجدر الإشارة أن هناك دراسات سابقة في النهوض والتخلف الحضاري، ولكنها لم تكن (كدراسة قرآنية) فمنها من تناول الجانب السياسي، ومنها الجانب الاقتصادي ومنها الثورة العلمية، ومنها العوامل مجتمعة، ولكنها اختلفت جميعها عن الدراسة الحالية أنها لم تجعل التوحيد مدار الدراسة وهذا ما ميز هذه الدراسة عن غيرها.

2. سلوم، حسين، حاضر العالم الإسلامي، عوامل التخلف والنهوض(العوامل الفكرية)، كلية الحقوق، الجامعة اللبنانية، لبنان، بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة– جامعة جرش الأهلية، 18 – 20/ شعبان/ 1424هـ،

14 – 16/ تشرين أول/2003م.

3. عبد الكبير، عبد الباقي، أزمة التخلف في العالم الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أفريقيا العالمية، السودان، بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة– جامعة جرش الأهلية، 18 – 20/ شعبان/ 1424هـ، 14 – 16/ تشرين أول/2003م.

4. سمارة، إحسان، السنن الإلهية ودورها في نهضة الأمة الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة جرش الأهلية، الأردن بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة– جامعة جرش الأهلية، 18 – 20/ شعبان/ 1424هـ، 14 – 16/ تشرين أول/2003م.

5. عوض، إبراهيم، الحضارة الإسلامية، نصوص من القران والحديث ولمحات من التاريخ،جزيرة الورد، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م، ص 11.

6. الإفريقي، محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ، ج7، ص 245.

7. الميداني، عبد الرحمن، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 548.

8. انظر: الفاروقي، إسماعيل، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1419هـ/ 1998م، ص 136.

9. قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1406م، 1986م، ص 41.

(*) أشار عماد الدين خليل في كتابه مدخل إلى التاريخ الإسلامي إلى ثلاث دوائر تتمثل بالعقيدة والشريعة والبقاء وهي تعبر عن الإنسان والدولة والحضارة. أما ماجد الكيلاني فقد تكلم في كتابه الأمة المسلمة عن دوائر ثلاث هي الإفراد المؤمنين والثانية أهمية الهوية والجنسية والثقافة الإيمانية، والثالثة دور التربية في بلورة محتوى الثقافة الإيمانية وتنشئة إنسان التربية الإسلامية، وعبر عنها بعد ذلك بالتكوين الإنساني المتمثل بالوسطية والطغيان والهوان.

10. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، 1412هـ، الجزء السادس، ص3532.

11. الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القران، وتضميناتها التربوية، دار الفكر، دمشق، 2001م، ص294/245.

12. انظر، الفاروقي، إسماعيل، أطلس الحضارة الإسلامية، ص 136.

13. الفاروقي، اسماعيل، أطلس الحضارة الإسلامية، ص 136.

14. القرضاوي، يوسف، في فقه الأولويات، الرسالة، بيروت،الطبعة الأولى،1434هـ، 2013م، ص 216.

15. بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة السابعة، 1427ه،2006م، ص 43.

16. العبيدي، خالد، القوانين القرآنية للحضارات (دراسة قرآنية لأحداث التاريخ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ،2005م، ص 155

17. السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ، 2000م،ص 414.

18. انظر، ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984هـ، الجزء الواحد والعشرون، ص 71.

19. أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، الجزء الثالث، ص 1668.

20. قطب، سيد، في ظلال القران، الجزء الثاني، ص 658.(بتصرف)

21. عوض، إبراهيم، الحضارة الإسلامية نصوص من القران والحديث ولمحات من التاريخ، جزيرة الورد، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م، ص255.

22. الزمخشري، أبو القاسم، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ، الجزء الأول، ص 355.

23. الجمال، محمد، الحرية وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، 1431هـ،حزيران– تموز،2010م، ص 42.

24. انظر ، أبو ناصر، حامد، الإسلام طريق الحرية، دار الفاروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1430هـ، 2009م، ص 13.

25. أبو ناصر، حامد، الإسلام طريق الحرية، ص12.

26. سابق، سيد، عناصر القوة في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، 1403هـ، 1983م، ص137.

27. أبو ناصر، حامد، الإسلام طريق الحرية، ص 50

28. سابق، سيد، عناصر القوة في الإسلام ، مرجع سابق، ص 140.

29. العشي، علي، تجديد الدين سبيل النهوض الحضاري للأمة المسلمة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أفريقيا العالمية، السودان، بحوث العالم الإسلامي عوامل التخلف والنهوض – بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة، جامعة جرش، الأردن، 20–18 – شعبان 1424هـ، 14 – 16/ تشرين أول/ 2003، ص 233.

30. أبو ناصر، حامد، ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، دار المنار الحديثة، 1411هـ، 1991م، ص 186.

31. زرمان، محمد، ثقافة الحوار في المرجعية الإسلامية، دار الكتاب، الأردن، 1430هـ، 2009م، ص19.

32. البوطي، محمد، منهج الحضارة الإنسانية في القران، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1424هـ،2003م، ص 162.

33. أبو ناصر، حامد، ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، ص 40.

34. زرمان، ثقافة الحوار في المرجعية الدينية، مرجع سابق، ص 18.

35. البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القران، ص 163.

36. الكيلاني، عدي، مفاهيم الحق والحرية في الإسلام والفقه الوضعي، دار النشر، عمان، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1990م، ص 84/95.

37. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، د.ط، د.ت، الجزء الأول، باب الهمزة، ص 21.

38. مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط، الجزء الثاني، باب الفاء، ص 688.

39. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984، الجزء الأول، ص 284.

40. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الجزء الأول، ص 519.

41. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الجزء الثاني، ص 270.

42. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الجزء الثاني عشر، ص 184.

43. قطب، سيد، في ظلال القران، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1412هـ، الجزء الخامس، ص 2773

44. أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، الجزء الأول، ص 523.

45. هلال، محمد، مقاومة ومواجهة الفساد، قرطبة، الرياض، د.ط، 2007م، ص 41.

46. عقيل، عقيل حسين، سنن التدافع، شركة الملتقى، بيروت، الطبعة الأولى، 2011م، ص 234–230.

47. مراد، بركات، المنهج التجريبي عند ابن سينا، دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ، 2009م، ص 20–."بتصرف"19

48. مراد، المنهج التجريبي عند ابن سينا، ص 22 – 27 (بتصرف كبير)

49. أحمد، حسن، الإسلام بين الإشكالية والحل، الناتا للدراسات الإسلامية، سوريا، الطبعة الأولى، 2010هـ، ص 117.

50. الطويل، توفيق، في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة ، الكويت، العدد –87 جمادى الآخرة 1405هـ/ مارس (آذار) 1985م،ص 122 – 128.

51. انظر، داود، محمد، نظرية القياس الأصولي منهج تجريبي إسلامي (دراسة مقارنة)، دار الدعوة، مصر، 1403هـ، 1984م، ص 395–393.

52. منير، وليد، أبعاد النظام المعرفي ومستوياته، ، أعمال الحلقة الدراسية عمان/الأردن، 10 – 11 حزيران– 1998، نحو نظام معرفي إسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى،1420هـ، 2000م، ص 174.

53. الزعبي، أنور، مسيرة المعرفة والمنهج في الفكر العربي الإسلامي، دار الرازي، الأردن، الطبعة الأولى، 1428هـ، 2007م، ص 233.

المصادر والمراجع:

1. أحمد، حسن، الإسلام بين الإشكالية والحل، الناتا للدراسات الإسلامية، سوريا الطبعة الأولى، 2010هـ.

2. الإفريقي، محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ.

3. البوطي، محمد، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1424هـ،2003م.

4. الجمال، محمد، الحرية وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر، الطبعة الأولى، 1431هـ، حزيران–تموز،2010م.

5. حامد، ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، دار المنار الحديثة، 1411هـ، 1991م.

6. داود، محمد، نظرية القياس الأصولي منهج تجريبي إسلامي(دراسة مقارنة)، دار الدعوة، مصر، 1403هـ،1984م.

7. الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن، وتضميناتها التربوية، دار الفكر، دمشق، 2001م.

8. زرمان، محمد، ثقافة الحوار في المرجعية الإسلامية، دار الكتاب، الأردن، 1430هـ، 2009م.

9. الزعبي، أنور، مسيرة المعرفة والمنهج في الفكر العربي الإسلامي، دار الرازي، الأردن، الطبعة الأولى، 1428هـ، 2007م .

10. الزمخشري، أبو القاسم، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.

11. زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.

12. السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ، 2000م .

13. سلوم، حسين، حاضر العالم الإسلامي، عوامل التخلف والنهوض" العوامل الفكرية" كلية الحقوق، الجامعة اللبنانية، لبنان، بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة– جامعة جرش الأهلية،2003م.

14. سيد، سابق، عناصر القوة في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، 1403هـ، 1983م .

15. الطويل، توفيق، في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة ، الكويت، العدد –87 جمادى الآخرة 1405هـ/ مارس(آذار) 1985م .

16. بن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984.

17. عبد الكبير، عبد الباقي، أزمة التخلف في العالم الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أفريقيا العالمية، السودان، بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة– جامعة جرش الأهلية، 2003م.

18. العبيدي، خالد، القوانين القرآنية للحضارات" دراسة قرآنية لأحداث التاريخ"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ،2005م .

19. العشي، علي، تجديد الدين سبيل النهوض الحضاري للأمة المسلمة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أفريقيا العالمية، السودان، بحوث العالم الإسلامي عوامل التخلف والنهوض – بحوث المؤتمر الخامس لكلية الشريعة، جامعة جرش، الأردن، 2003م .

20. عقيل، عقيل حسين، سنن التدافع، شركة الملتقى، بيروت، الطبعة الأولى، 2011م

21. عوض، إبراهيم، الحضارة الإسلامية، نصوص من القران والحديث ولمحات من التاريخ،جزيرة الورد، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م .

22. الفاروقي، إسماعيل، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1419هـ، 1998م.

23. القرضاوي، يوسف، في فقه الأولويات، الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى،1434هـ، 2013م .

24. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، 1412هـ

25. قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1406م، 1986م.

26. الكيلاني، عدي، مفاهيم الحق والحرية في الإسلام والفقه الوضعي، دار النشر، عمان الطبعة الأولى، 1410هـ، 1990م.

27. مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، د.ط، د.ت .

28. مراد، بركات، المنهج التجريبي عند ابن سينا، دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ، 2009م.

29. منير، وليد، أبعاد النظام المعرفي ومستوياته، ، أعمال الحلقة الدراسية عمان/الأردن، 11–10 حزيران– 1998، نحو نظام معرفي إسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى،1420هـ، 2000م .

30. الميداني، عبد الرحمن، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى.

31. ناصر، حامد، الإسلام طريق الحرية، دار الفاروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1430هـ، 2009م.

32. بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة السابعة، 1427هـ،2006م.

33. هلال، محمد، مقاومة ومواجهة الفساد، قرطبة، الرياض، د.ط، 2007م.